

الحركة الفكرية

في العصور الحديثة

للاستاذ رفيق التميمي

١ - الحركة الأدبية :

لقد ظهر في أوائل القرن السابع عشر ثلاثة من كبار الأدباء كانوا النجم اللامع في سماء الأدب العالمي الأوربي وهم شكسبير وسرفنتس ، ولوب دي فينا ، والأول شاعر الانكليز الأشهر . أما الثاني والثالث فقد ظهرا في أسبانيا

والحركة الأدبية في فرنسا لم تتبوأ مكانتها الرفيعة إلا اعتباراً من انتهاء الثلث الأول من القرن السابع عشر .

لقد ظهر في انكلترا خلال القرن السابع عشر رجلان عظيمان هما شكسبير وملتن . أما شكسبير فقد تبوأ مكانته الأدبية الرفيعة في عصر الملكة اليعصابات ، وظل ينفذ الأدب الانكليزي بآثاره الخالدة في أيام الملك جيمس الأول . ويقول أساتذة الأدب العالمي إنه ليس بين الشعراء المتقدمين والتأخرين من أبرز مثله مزارع واسعة في جميع أدوار الحياة وأطوارها ، ولا أبدى سواه مثل اطلاع على ظواهرها وأسرارها ؛ فقد كتب في موضوعات يدخل فيها كل وجه من وجوهها ، وبحث في كل مطلب من مطالبها ، وكان في جميع هذه الأبحاث أستاذاً كبيراً وحكماً وخبيراً حتى يكاد الناس اليوم لا يعمدون إلى درس موضوع منها ما لم يساقوا بطبيعة الحال إلى درسه في مخلفات شكسبير ، فهو كراوية لا مضارع له ، أما كشاعر فلا يذكر بجانب اسمه إلا واحد أو اثنان ، وكفيلسوف حكيم لا تكاد تفكر في بمضلة حيوية إلا تراء قد طرقها وحلها ، ولا تطلب مطلباً إلا تجده بين كنوزه التي لا تحصى ولا تثنى .

والألان أول من ترجم شكسبير إلى لغة أجنبية وقام نقاد كبار منهم يوضحون مزاياه الرائعة ومهامه السامية حتى انفتحت أعين العالم على معينه الفياض فاختلوا بترفون منه ما لده وطالب ؛

وهكذا تحول أعظم شاعر في انكلترة إلى أعظم شاعر في العالم كما يقول علماء الأدب .

ولشكسبير آثار خالدة : منها الزوبعة وحلم ليلة في منتصف الصيف ومكبث وروميو وجوليت وهملت وتاجر البندقية والبطل وقد ترجمت هذه الكتب باللغة العربية .

وظهر في أيام الملك شارل الثاني شاعر كبير هو ملتن ، وقد كان على المذهب البيوريتاني وألف باللاتينية بعد إعدام الملك شارل الأول كتاباً دافع فيه عن العدالة في قتل الملك . فلما عاد آل استوارت إلى عرش انكلترا اضطر ملتن إلى أن يمتزل العالم أربع عشرة سنة ، وفي خلال ذلك وضع في عزلة وعماه قصائده الخالدة التي انتهت عشرة وهي التي سماها الفردوس المفقود والفردوس المردود .

ونبع في أيام ملتن أديب بيوريتاني آخر هو يوحنا بنبان كان سجين بعد عودة آل استوارت انتهى عشرة سنة لأنه لم يكن على المذهب الانجليكاني ، وفي وحشة سجنه وضع كتاباً سماه (سياحة المسيحي) وهو من أعجب الرمزاء في الأدب الانكليزي . وفي خلال القرن الثامن عشر ازداد عدد الكتاب والشعراء والروائيين والمؤرخين . ولا شك أن لظهور طائفة من أمهات الجرائد والمجلات الانكليزية حينئذ علاقة كبرى بذلك الازدهار الأدبي والملي تذكر هنا على سبيل المثال (أدباء البحيرات) الذين خلدوا جمال الطبيعة في أشعارهم ، والروائي الذائع الصيت (ولتر اسكوت) وبه يبدأ الدور الإبداعي في الأدب الانكليزي ، وجون كيتس ، والمؤرخ أدورد جين . وظهر في ألمانيا خلال القرن الثامن عشر الكاتب الكلاسيكي (كلوبستوك) ، والأديب (وايلند) والروائي (لينغ) و (هردير) ، وكان هؤلاء الأدباء يتقلون عن الأدب الفرنسي ويقلدون المؤلفين فيه . وفي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر نشأ في ألمانيا طراز جديد للتأليف بفضل أدباء عظام يأتي في مقدمتهم لينغ ، وغوته ، وشيلر . وقد وضع هؤلاء مناهجاً جديداً يختلف عن النهج الكلاسيكي الذي كان شائعاً آنئذ في فرنسا ، وسمى هذا النور في الأدب الألماني بدور العاصفة أو المجهوم .

لقد أجمعت نهاية هؤلاء الأدباء الكبار إلى تحسين أداء

المعاني التي تثير المواطن دون الالتفات إلى إرضاء الناس بإجادة معاني الكلام وتنميق العبارات ، وفي خلال هذه الحركة الأدبية الجديدة بات الكتاب والشعراء والأدباء ينطقون بما توجيه إليهم أنسكارهم ومشاعرهم وينتقون من الحوادث اليومية مواضيع لكتاباتهم . فاذا اختاروا محادثاً قديماً فانهم يعملون رجاله من بين الألمان القدماء المعاصرين أمثال ولیم تیل وولنشتين ، وقد انصرف مهمهم إلى أن يكتبوا بلغة يفهمها الناس وبألفها القراء ، وبذلك أصبحوا يخاطبون سواد الشعب ولا يمتنون بأبناء الطبقة الممتازة . وكان نابوليون وصف غوته ، أحد رجال المذهب الأدبي المتقدم ذكره ، بأنه رجل ، وهو في الحقيقة رجل عبقرى استطاع أن يستغل مواهبه الرفيعة ، وأن يسمو في أعماله وأدبه إلى الذروة ، ويطلق الفنان لتفكيره فيذهب في مختلف الشعاب ، ويبلغ به أقصى الأغراض . وامتاز غوته بعقله الخصب وإحساسه المتقد وخياله الخصب الواسع ، وكان يستوحى من حياته الطويلة التي كادت تمتد إلى قرن كامل كل المظلات الجسم التي حفلت بها ، ويستخلص من حوادثها دروساً جلية في الفن والأدب والفلسفة والاجتماع ، ومن آثاره الخالدة « فاوست » و « آلام فرتر » .

وظهر في فرنسا خلال القرن السابع عشر من الكتاب والروائيين العظام (كورنای) و (ديكارت) واضع الفلسفة الحديثة و (بسكال) المجترة في الرياضيات ، وعدو اليسوعيين .

وظهر في النصف الأخير من القرن المذكور الروائي الكبير (موليار) والشاعر (بوالو) والروائي العظيم (راشيل) وواضع الأمثال الشعرية الخالدة (لافونتين) ، و (بوسويه) الواعظ بيلاط الملك لويس الرابع عشر ، و (لابروبار) الروائي والوصاف للأخلاق والآداب المعاصرة ، و (فنلون) الأسقف والكتاب .

واقصد انصف هؤلاء الكتاب والأدباء والشعراء بعمرتهم الثامنة لتواضع اليونان والرومان وبتقليدهم إياهم في جميع آثارهم الخالدة التي ازدان بها الأدب الفرنسي الحديث .

وفي بدء القرن التاسع عشر أخذت مبادئ الحركة الأدبية الجديدة تنتشر في ألمانيا على يد كبار الأدباء وفي مقدمتهم غوته ، وشيلر ، ولينينغ ، وسميت تلك الحركة بالمذهب الابداعي (الرومانتيك) ، ومع أن هذا المذهب كان دون المذهب الكلاسيكي - كما لا فان الألسان ويجوده ألب بالإنجاب ، وأكثر تأميراً في

المواطن وأقرب إلى طبيعة القاري واستقبلوه بالإعجاب والتقدير . وما لبث المذهب الأدبي الجديد أن انتشرت مبادئه وقواعده في سائر البلاد الأوروبية وبات البيان الألماني نموذجاً لكتاب أوروبا منذ بداية القرن التاسع عشر . وقد رفع لواء المذهب الابداعي الجديد في ألمانيا كل من شليكل ، وتيك ، وبرتانو وهوفمان ، وحينما كانت ألمانيا ترزح تحت السيطرة الفرنسية أيام عظمة نابليون ألف فريق من الشباب المتحمسين جمعية (ألمانيا الفتاة) وأخذوا ينشرون مبادئهم القويمة بمختلف الطرق وينبهون بني قومهم إلى وجوب تخليص وطنهم من الحكم الأجنبي ، ودعم هذه الحركة الوطنية فريق من الأدباء والشعراء ووضعوا لذلك مؤلفات قيمة ، ويأتى في مقدمة هؤلاء من الأدباء : (غوتزكو) و (لوبه) و (بورن) و (هنري هين) و (شنكندورف) .

وفي أواخر القرن الثامن عشر دخلت مبادئ المذهب الابداعي إلى إنكلترا غير أنها لم تكن في بادئ الأمر إلا عبارة عن (بدعة مخالفة للشعر المألوف) كما كانوا يقولون عنها . فحاول بعض الشعراء نظم القصائد والأشعار باللغة العامية وأحيوا ما كاد يندرس من قصائد المصور المتوسطة .

وظهر في الربع الأول من القرن التاسع عشر الشعراء الثنائيان (باريون ، وشيلي) الاريستقراطيان وأضافا إلى الأدب الانكليزي صفحات خالدة من الشعر الرقيق ، ومات الاثنان في سن الشباب . وذهب الأول ضحية الحمى في مدينة (ميسولونكي) حين ذهب إليها ليشترك الثوار اليونان في ثورتهم ضد الدولة العثمانية ، وكان بارزون لا يبحث في شعره إلا عن نفسه ، وقد فصل فيه مشامراته وآلامه وملاذاته وغرامه وحقدته وشدة شغفه بالابتعاد عن الناس وضجره من الحياة ، واحتقر بوقاحة أبناء الطبقة البورجوازية .

وامتاز الكاتب الكبير (ولتر سكوت) برواياته التاريخية التي نالت إعجاب الجمهور وتقديره . أما (تشارلز ديكنز) فلم يمن بالحوادث التاريخية في رواياته بل انصرف بكليته إلى وصف الظروف والبيئة الاجتماعية التي وقعت قصصه فيها فجاءت كتبه مرآة صافية انمكتت فيها أخلاق القوم وميولهم وعاداتهم . وبرز الكاتب الفكاهة (تشارلز) في دقة الوصف وقوة التعبير في كتاباته : أغنياء الجليل ، ومعرض الأباطيل

بأقلامهم ويفضحون معانيها . فهم والحالة هذه كانوا منشئين أكثر منهم فلاسفة .

وكانت الهيئة الاجتماعية يومئذ في بلاد أوروبا قائمة على دعائم متشابهة هي السلطة المطلقة للحكومة ، وكان الشعب قد اعتاد على الطاعة للملوك ، وكانوا يقولون إن سلطة الملك مستمدة من الله تعالى فللملك حق الحكم وعلى شعبه واجب الطاعة . وهكذا كان شأن المؤمنين مع الكنيسة سواء أكانوا في البلاد البروتستنتية أم الكاثوليكية ؛ فلقد كان من حقوق الكهنة تقرير العقائد الواجب اتباعها وتعيين الاحتفالات وكانوا لا يطيعون أن يكون في الدولة الواحدة أكثر من مذهب واحد ، وكانت الكنيسة تتعاون مع حكومة الملك المستبد في تنفيذ البادئ المتقدم ذكرها فكانت الحكومة تقتصر من المراقبة ، وتوجب على الشعب إطاعة الكنيسة ، وقد جعل الكهنة مقابل ذلك إطاعة الملك فرضاً دينياً لا يجوز إغفاله .

وقام فريقان من الفلاسفة المصلحين في فرنسا : الأول في النصف الأول من القرن الثامن عشر وقوامه فولتير ومنتسكيو ، والجيل الثاني في النصف الأخير من ذلك القرن وقوامه جان جاك روسو ، ودريدرو ، وجماعة العلماء المعروفين برجال الموسوعة .

أما منتسكيو وفولتير : فكلاهما من أهل الطبقة العليا ، وكان فولتير عدو الأديان الموسوعة ولا يعترف إلا بالدين الطبيعي القائل بوجود الله وخلود النفس . وقد بشر بالتساهل ودافع عنه في جميع كتبه وطالب بديانة خالية من العقائد والرموز والأسرار ، ومقتصرة على تهاليم أدبية واجتماعية شعبية ، وقلما خاض فولتير في مسائل الحكومة ، وكان تلاميذه الكثيرون يعتمدون عن السياسة ويكتفون بمهاجمة الكهنة وأنظمة الكنيسة تحت عنوان العقل أو الإنسانية .

أما منتسكيو فقد وضع مبدأ توزيع السلطات وهي التشريعية والقضائية والتنفيذية وحض على فصل هذه السلطات بعضها عن بعض ليتسنى للشعب حكومة عادلة ، ودافع منتسكيو عن مبدأ استخدام النبلاء في مناصب الدولة وعن عدالة توزيع الضرائب على جميع أفراد الشعب بلا استثناء ، ووجوب إلغاء التعذيب والمعوقات القاسية واحترام حرية الفرد .

وكان كتاب الجيل الثاني يتمتعون بمبادئ ثورية وبحرّون

وامتاز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوفرة الانتاج الأدبي واتصاله الوثيق بالفنون الجميلة ، وظهر من الأدباء والشعراء في انكلترا من كان له باع طويل في الرسم والنحت مثل : رويسني الرسام ، ووليم موريس النقاش ، وجون رسكين الذي مثل عصره خير تمثيل بكتاباته التي تزخر بمحاسة غير مفتعلة ، وبلاغة ساحرة ، وامتاز رسكين بتفكير سليم مكنه من أن يتناول العقد الأمور وأخطر المواضيع في الأخلاق والاجتماع ، ويناقشها بسهولة عجيبة ، وقد اشتهر أسلوبه بالبهجة والرشاقة رغم طول الجملة في كتاباته وتراحم الأدلة والبراهين فيها ، وقد كان لرسكين أعمق الأثر في تربية الفنون الجميلة وتنسيق الجهود الزامية إلى تدعيم الأخلاق وتقويتها .

وخلف رسكين في ترفينة الفنون والآداب في انكلترا طائفة من الشعراء والفلاسفة والرسامين وكتاب القصص ومنهم (مرديث) و (رديارد كيبينغ) و (آتش . جي . ويلز) ، وامتاز مرديث بدقة الملاحظة وإتقان التحليل النفسي ؛ أما كيبينغ فقد سجل في كتبه عظمة الشعب البريطاني وقوة تفكيره ، ومثانة خاقه وسلامة ذوقه . وري ويلز يؤلفاته المختلفة الأدبية والاجتماعية إلى وجوب القيام بإصلاحات عميقة في حياة الأمم الاجتماعية والسياسية .

وأشهر من ألف روايات تمثيلية (اسكار وايلد) و (برناردشو) . وانصرف وايلد إلى وضع روايات هزلية امتازت بشدة الحوار والتعمق في البحث والنقد إلا أنه أغضب طائفة كبيرة من الشعب بتقده اللادع وبحونه . أما برناردشو الإيرلندي الاشتراكي المتطرف فقد أدخل إلى مسارح انكلترا روايات هزلية ذات طابع خاص فلسفي ، وانصرف بكليته إلى نقد المجتمع المعاصر نقداً لا ذعماً وإلى وصف النواحي العوجاء فيه وصفاً مؤثراً طالب فيه بوجوب القيام بإصلاح اجتماعي عاجل . وتحمل كتبه كلها طابعاً اشتراكياً متطرفاً .

وفي خلال القرن الثامن عشر ظهر في فرنسا عدد من الكتاب البارعين سموهم فلاسفة على أنهم لم يبدوا رأياً جديداً في القضايا التي كانت محط نظر رجال الفلاسفة وإنما صوبوا أنظارهم إلى المسائل الملحة فدرسوا العقائد والسنن القائمة في عصرهم . وكانوا إذا ظهر لهم منها ما يخالف العقل طفقوا يحملون عليها

والأشخاص والأشياء وصفاً دقيقاً حتى باتت كتاباتهم كأنها مرآة صافية انعكست فيها ما كان يقع تحت بصر الكتاب من الأمور والمناظر المختلفة .

وحل لواء هذا المذهب الجديد من الأدباء والشعراء لامارتين وفيكتور هوغو ، وجورج ساند . ثم تبنتهم طائفة كبيرة من الشبان ، وحين نشر فيكتور هوغو روايته (كرومول) اعتبرت مقدمتها بمثابة منهج للمذهب الإبداعي . وأخذ الكتاب مخاطبون الشعب بلفظه الدارجة دون أن يتحروا الأسلوب العالي في الإنشاء وبات الإبداعيون يعرفون بأنهم يرمون فيما يكتبونه إلى جمل فن الكتابة أكثر وضوحاً وأقرب إلى مباحج الطبيعة ومناظرها الجميلة بخلاف مبادئ المذهب المدرسي (الكلاسيكي) الجافة المملة .

وفي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قام فريق من الكتاب يناهضون الإبداعيين ويدعون الدفاع عن الحقيقة وعن الطبيعة كما هي دون طلاء أرتزوين ، ثم انصرفوا إلى وصف مشاهد الحياة المختلفة وصفاً دقيقاً مع إسهاب في ذكر الجزئيات وقد دعى أرباب هذه المذاهب بالواقعيين Ralistes أو الطبيعيين Maturalistes وانصفوا بدقة التعبير ووفرة الفردات اللغوية وجمال الأسلوب . ومن أشهر هؤلاء الكتاب (غستاف فلووير) و (الكونت دي ليل) و (أميل زولا) .

وفي فجر القرن العشرين ظهرت طائفة من الأدباء والكتاب والشعراء في مختلف الممالك أسدت للبشرية خدمات قيمة في تنويع الأدب العالمي وزخرفته . ومن هؤلاء الأديب الفرنسي يارلوتي الذي وصف البلاد الحارة والشرقية أحسن وصف ، والروائي النرويجي (ايسن) الذي درس جهود الأمم الراقية التي تستهدف هدم الأوهام والتقاليد البالية والقضاء على العوائد المخيفة .

وامتاز بأدب القصة كتاب روسيون أشهرهم (تولستوى) و (دوستوفسكى) . وظهر في السنين الأخيرة مذهب جديد في الأدب هو المذهب الرمزي (Symbolisme) وقد أهمل أتباعه القيود البيانية القديمة ، ونهجوا مناهج جديدة في النثر والشعر اعتقدوا أنها أخف وقماً في النفوس وأرق بياناً وأحكم إعراباً عن مختلف الشاعر والأحاسيس ، وترأس هذه الحركة الأدبية بفرنسا الأديب (ملارميه) ثم تبعه كل من (بودلير) و (غرلين) .

رئيس القسم

الشعب على نقض التشكيلات الاجتماعية والسياسية والدينية القائمة ، وكان روسو يعتبر أن الإنسان صالح بالطبع إلا أن التشكيلات الاجتماعية القائمة في عصره قد حرمت من خيرات الطبيعة وأن حق التملك جائز ، وأن الحكومة أكثر جوراً لأنها تستبد بالناس وتنتشر بينهم مبادئ شريرة ؛ فيجب والحالة هذه القضاء على التشكيلات الاجتماعية القائمة وإبادة حق التملك والحكومة المستبدة ثم الرجوع إلى الطبيعة ليتفق الناس حينئذ على شكل من أشكال الحكومة يستحسنه الجميع ويساوى بين الجميع في الحقوق والواجبات ، وبمقتضاه عن سلطة الملك بسلطة الشعب ويصبح الوطنيون كلهم سواء ، وتخول الحكومة التي يختارها المواطنون السلطة المطلقة لتدير وتنمي ثروة البلاد وتنتشر العلوم وتشرف على مبادئ الدين ومعابده . وقد فصل روسو هذه المبادئ الثورية في كتابه الشهير (العقد الاجتماعي) .

وحينما كان روسو ينشر تعاليمه كان الأستاذ (ديدرو) ينشر موسوعته الشهيرة ، وقد جمع فيها خلاصة المعارف الإنسانية بعنوان الانيسكلوبيديا ، واشترك في تأليفها جماعة من رجال الأدب والعلم والفلسفة ، وهي في ثمانية وعشرين مجلداً ضخماً انتشرت في جميع أنحاء أوروبا ، ونقلت معها أفكار الفلاسفة الإصلاحيين في إصلاح المجتمع من الوجهات السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية .

وانتشر المذهب الإبداعي بفرنسا في أيام نابليون ، وذلك بفضل الأدبية مدام دي ستايل التي كانت تنشر مقالات متتابعة عن الحركة الأدبية الجديدة في ألمانيا .

وفي أوائل القرن التاسع عشر ظهر الكاتب الفرنسي المبكرى (شاتوبريان) ففدى الأدب الفرنسي بمؤلفاته القيمة التي حافظ فيها على قواعد المذهب الكلاسيكي إلا أنه اقتبس مادتها من الكتب الدينية والحياة المصرية خلافاً لما كان متبعاً في المصور السابقة .

وحين نبغ شاعر فرنسا الأكبر فيكتور هوغو انتشرت مبادئ المذهب الإبداعي التي تحض على تنويع مادة الكتابة ، وعلى نقل مؤلفات الكتاب الكبار في الأمم الأجنبية إلى اللغة الفرنسية . وامتاز الإبداعيون عن سوامم بالبحث عن الفرد إلى جانب مجموع الأمة وانصرفوا إلى التوسع في وصف المناظر